نظرة عصرية إلى حقيقة (التّفسير) بالإستناد إلى الآيات والروايات

السيد محمد حسين ميري (الكاتب المسؤول)

أستاذ مساعد ، قسم المعارف الإسلامية في جامعة العلوم الزراعية والمصادر الطبيعية في خوزستان، إيران

miri@asnrukh.ac.ir

عبدالهادي صالحي زاده

أستاذ مساعد ، قسم المعارف الإسلامية في جامعة العلوم الزراعية و المصادر الطبيعية في خوزستان ، إيران

salehizadeh@asnrukh.ac.ir

السيد ضياء الدين ميري

باحث في العلوم الدينية وماجستير في الفلسفة جامعة طهران ، إيران

ziyamiri@ut.ac.ir

A modern look at the reality of "interpretation" based on verses and narration

Seyyed-mohammadhosein Miri (responsible writer)

Assistant Professor , Faculty member and assistant professor of Islamic education group of Agricultural Sciences and Natural Resources University of Khuzestan , Iran

Abdolhadi Salehizadeh

Assistant Professor , Faculty member and assistant professor of Islamic education group of Agricultural Sciences and Natural Resources University of Khuzestan , Iran

Seyyed-Zia Al-Din Miri

Research in Religious Sciences and Master in Philosophy , Tehran University , Iran

الملخّص :

لا ريب في أنّ تفسير القرآن الكريم وإدراك المقصود الإلهي في الآيات هو السبيل الوحيد لبلوغ التعاليم القرآنية، وعليه، فإنّ فهم حقيقة (التّفسير) وجوهره يُعدّ أمراً ضروريا لتحديد أُطره واتّساعه. فالنظرة المقتضبة إلى كلمة (التّفسير) لا تُسعفنا في هذا الباب بل ينبغي التّعامل معه بنظرة أوسع ورؤية أعمق، والاستعانة بالعبارات والكلمات ذات العلاقة والقرائن المطلوبة حتى الوصول إلى حقيقة التّفسير.

يشير هذا البحث – بأسلوب وصفي تحليليّ – إلى أنّ سبيل الوصول إلى حقيقة التفسير وماهيّته يتمثّل في النظرة المنهجية لأسلوب آل البيت (عليهم السلام) كقرينة منفصلة إلى جانب الاستعانة بآيات القرآن الكريم والمبادئ العقلائية للمحاورة والقرائن المتصلة، وهذا الأسلوب هو الذي يمكنه أن يوصلنا إلى تفسير مُعتبر للقرآن الكريم.

وبالاستناد إلى نتائج البحث تُعدّ كلمة (تبيين) كلمة محورية في تفسير القرآن الكريم فهي توضّح جميع القيود والقرائن المؤثّرة في فهم آيات القرآن، وبالنظر إلى هذه النقطة الدليلية فإنّ أوضح تعريف وأحسنه لكلمة (التّفسير) هو: «أنّه بيان لآيات القرآن وفق المفهوم العرفي والهيكل الأدبي للكلمات والجُمل والقرائن المتصلة بها، وبالتالي الكشف عن مُراد الله تعالى من آيات القرآن بالاعتماد على القرائن والأدلّة المنفصلة».

الكلمات المفتاحية : تفسير القرآن ؛ تبيين القرآن ؛ القرائن المتصلة ؛ القرائن المنفصلة ؛ الروايات التفسيرية .

Abstract:

There is no doubt that the interpretation of the Noble Qur'an and the realization of the divine purpose in the verses is the only way to reach the Qur'anic teachings, and accordingly, understanding the reality (interpretation) and its essence is a necessary matter to determine its frameworks and breadth. A brief look at the word (interpretation) does not help us in this section, but it should be dealt with with a broader view and a deeper vision, and the use of relevant phrases and words and the required clues until arriving at the truth of the interpretation.

This research indicates - in a descriptive and analytic style - that the way to reach the truth of interpretation and its nature is the systematic view of the style of the Ahl al-Bayt (peace be upon them) as a separate presumption in addition to the use of the verses of the Noble Qur'an and the rational principles of the dialogue and related evidence, and this method is what can lead us to an interpretation Reference to the Holy Qur'an.

Based on the results of the research, the word (tafsir) is considered a pivotal word in the interpretation of the Noble Qur'an, as it clarifies all the constraints and clues affecting the understanding of the verses of the Qur'an, and given this evidence point, the clearest and best definition of the word (interpretation) is: "It is a statement of the verses of the Qur'an according to the customary concept and the structure Literary words, sentences, and related clues, thus revealing the will of God Almighty from the verses of the Qur'an by relying on separate clues and evidence.

Key words : interpretation of the Qur'an ; explaining the Qur'an ; related clues ; separate clues ; Explanatory narratives

المقدّمة :

أنزل الله (عَزّ وَجَلّ) القرآن الكريم لهداية البشرية إلى الصراط المستقيم، ويجب على الإنسان بذل جهوده لفهم معارف هذا الكتاب السّماوي الشريف والهادي، ووفق ما صرّح به القرآن الكريم نفسه فإنّ تفسير هذا الكتاب الإلهيّ يُعتبر من أهمّ وظائف الرسول الأعظم (ﷺ) والعترة الطاهرة (عليهم السلام)، بل هم أوّل مَن فسّر القرآن الكريم وبيّن معارفه، ثمّ أصبح التفسير فيما بَعد أهمّ علم من بين العلوم الإسلامية، فتطوّر وتكامل إلى حدّ كبير. هذا، ولم يتمكّن الكثير من المُفسّرين من تقديم تعريف محدّد لكلمة (التّفسير) (بابائي و آخرين، ١٣٧٩ش ،ص١٢) إلّا أنّ بعض المُفسّرين تناولوه في مقدّمة تفاسيرهم وكذلك عدد من المُفكّرين في العلوم القرآنية في كُتبهم وآثارهم. على سبيل المثال، يُعرّف بعضهم (التّفسير) على أنّه علم بحدّ ذاته فيما قال آخرون أنّه العمل الذي يقوم به المُفسّرون في بيان معنى الآيات ومقاصدها.

ومثل هذه التّعاريف للتفسير تشير إلى المراحل العملية للتفسير والتي يلخّصها بعضهم في مرحلة واحدة، بينما يعتبر آخرون أنّه على مرحلتيْن، وكلّ من تلك التعاريف يمتلك نقاط ضعف وقوّة (بابائي و آخرين، ١٣٧٩ش، ص١٣-٢٢).

وبالنظر إلى نقص التّعاريف المذكورة وضعفها، فإنّ أحدث تعريف جامع للتفسير هو: «إنّه توضيح للمضمون الاستعمالي لآيات القرآن الكريم والمقاصد الإلهية في تلك الآيات بالاستناد إلى الأدب العربي والأصول العقلائية للمحاورة» (بابائي و آخرين،١٣٧٩ش ، ص٢٥-٢٣)، لكنّ هذا التعريف تعرّض للكثير من الانتقادات من قِبَل قائليه (بابائي ١٣٩٤ش ، ص١٢-١٣) وغيرهم (طيب حسيني و آخرين، ١٣٩٦ش،ص ٣٧-٣٨).

ولكشف المقصود الإلهيّ فإنّ كلّ ما يلعب دوراً في الكشف عن ظاهر الحال نراه في ظاهر الحال من إيضاحات حول ذلك المقصود يلعب دوره الخاصّ به، كما أنّه مؤثّر بشكل واضح، بل ويُعدّ من أسباب الفهم والإدراك الذي يشمل فهم جميع المعاني والمدلولات في المقصود الإلهيّ (واعظي، ١٣٩٢ش،ص ٢٨٢ و٢٩١).

وبالاستناد إلى ما مرّ فإنّ حقيقة (التّفسير) وجوهره من أهمّ البحوث الأساسية في تفسير القرآن الكريم، ويحاول كاتب هذه المقالة تقديم تعريف عصريّ وحديث وجامع

ومانع للتفسير من خلال التركيز على المعارف القرآنية الدقيقة والشاملة حول التفسير وعدم الاكتفاء بكلمة (التّفسير)، بل الاستعانة بالكلمات والعبارات المتقاربة الأخرى.

١) مفهوم التّفسير

من وجهة نظر اللغويين العرب فإنّ مادة (فسر) تأتي بمعنى بيّنَ وأبانَ وشرح أمراً ما وكشف مسألة ما وأظهرها وأوضح معنى معقولاً وقدّمَ بياناً لمعنى كلام ما (الراغب الأصفهاني، ١٤١٢ق،ص ٣٨٠؛ ابن منظور، ١٤٠٨ق،ج ٥ ،ص ٥٥؛ الفيومي ١٤١٤ق، ج٢، ص٤٧٢؛ الطريحي، ١٣٧٥ق، ج٣،ص ٤٣٧؛ صفي پور، بدون تأريخ،ج١ ،ص ١٨٧؛ الزبيدي، ١٤١٤ق،ج ٧ ،ص ٣٤٩).

و (التفسير) كذلك مصدر من باب (تَفعيل) يشمل المعاني المذكورة (ابن دريد، ١٩٨٧م،ج ٢ ،ص ٨١٧؛ ابن منظور، ١٤٠٨ق،ج٥، ص ٥٦)، كما أنّه يشير إلى معنى المبالغة والشدّة أو التدريج والسّير خطوة خطوة، أي، بيان معاني الكلمات وحقائقها الخفيّة بوضوح (الراغب الأصفهاني، ١٤١٢ق،ص ٦٣٦؛ الفيومي، ١٤١٤ق،ج ٢ ،ص ٤٧٢).

كما ذكر اللغويون معانٍ أخرى للتفسير، منها: كشف المُراد من اللفظ المُشكل (ابن منظور، ق١٤٠٨، ج٥ ، ص٥٥؛ الفيروز آبادي، ١٤١٥ق،ج٢، ص١٩٢؛ الزبيدي، ١٤١٤ق، ج٧،ص ٣٤٩؛ الطريحي، ١٣٧٥ق،ج٣،ص ٤٣٧) وكشف معاني اللفظ وإظهاره (الطريحي، ١٣٧٥: ٣ / ٤٣٧) وشرح قصص القرآن الكريم المجملة (الزبيدي، ١٤١٤ق،ج ٧ ،ص ٣٤٩).

ويرى بعض اللغويين والباحثين في العلوم القرآنية أنّ مادة (فسر) هي مقلوب (سفر) (السيوطي، ١٣٨٠ق،ج ٢ ،ص ١١٨٩؛ الطريحي، ١٣٧٥ق، ج٣ ص ٤٣٧؛ التهانوي، ١٩٩٦م،ج ٢،ص ١١١٥؛ الزركشي، ١٤١١ق،ج ٢،ص ٢٣٨)، ومن خلال البحث في آراء الأدباء واللغويين العرب نجد أنّ كلتا المادّتيْن (ف س ر) و (س ف ر) تعنيان الكشف والتوضيح.

وجدير بالذّكر أنّ الغوص في مواضع استعمال مادّة (ف س ر) يبيّن لنا أنّ كلمة (تفسير) غالباً ما تُستَعمل لإظهار المعنى المعقول وتوضيح المسائل العلمية والمعنوية، وأنّ المادة (سفر) تُستَعمَل لكشف الأعيان والأشياء الخارجية المحسوسة (ابن فارس، ١٤٠٤ق،

ج٣ ،ص ٨٢؛ ابن منظور، ١٤٠٨ق،ج ٤،ص ٣٦٩؛ الزبيدي، ١٤١٤ق،ج ٧ ،ص ٣٤٩)، وقد ذكر الرّاغب الأصفهاني مثلاً النموذج الثاني بمعنى اكتشاف الأعيان (الراغب الأصفهاني، ١٤١٢ق،ص ٦٣٦)، وأفرد مادّة (فسر) لإظهار المعاني المعقولة (الراغب الأصفهاني، ١٤١٢ق،ص ٤١٢).

وتتجلّى لنا هذه المغايرة المفهومية كذلك بين (فسر) و (سفر) في استعمالات القرآن الكريم لهاتيْن الكلمتيْن ومشتقّاتهما، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (سورة الفرقان، الآية ٣٣) فإنّ المقصود بالتفسير هو بيان وتوضيح مُراد المتكلّم، وهو أمر معنويّ ومعقول، أمّا في بعض الآيات كما في قوله سبحانه: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (سورة المدثّر، الآية ٣٤) وقوله (عزّ وجلّ): ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (سورة عبس، الآية ٣٨) فإنّ هاتيْن الكلمتيْن تشيران إلى معنى انكشاف واتّضاح الأعيان. وهذا المعنى لكلمة (سفر) واضح أيضاً في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٨٣) لأنّ أصل المادة (سَفَرَ) تعني إزاحة السّتار ومنها اشتُقّ اسم المسافِر الذي يُسفر عن قناعه الذي كان عليه قبل ذلك، فالمسافر يُظهر ما كان خافياً منه، ويسافر في الأرض الواسعة الخالية (الفيومي، ١٤١٤ق،ص ٢٧٩؛ ابن فارس، ١٤٠٤ق،ج ٣ ،ص ٨٢).

وبالنّظر إلى بنية كلمة (تفسير) التي هي من باب (تفعيل) - وتُفيد المبالغة - يمكننا القول إنّ معناها الحقيقيّ هو: «كشف الأمور والمسائل المعنوية والحقائق العلمية بشكل واضح».

٢) معنى (التّفسير) بالاستناد إلى الكلمات الموضّحة له

هنالك كلمات أخرى في القرآن الكريم تشمل معنى توضيح المقصود الإلهيّ في الآيات – أي التفسير - إلى جانب كلمة (تفسير) التي تمّ استعمالها في آية واحدة فقط، وفيما يأتي سنبحث في الكلمتيْن الرئيستيْن الأُخريين، وهما (التلاوة) و (التبيين) واللتيْن تناظران مفهوم التفسير:

أ- أصل مادّة (تلو) هو التبعية والاتّباع (الفراهيدي، ١٤١٤ق،ج ٨،ص ١٣٦)، ويرى البعض أنّ (تلو) تعني القفا، وأنّ المُراد من تلاوة القرآن هو قراءته وتلاوته وبيان

كلماته وحروفه التي تأتي متتالية، ومن هنا فإنّ (التلاوة) تعني القراءة المتتالية والمستمرّة (ابن فارس، ١٤٠٤ق، ج١ ،ص ٣٥١؛ الراغب الأصفهاني، ١٤١٢ق،ص ١٦٧).

ويعتقد بعض المتخصّصين في لغة القرآن أنّ المفهوم المحوريّ لمادّة (تلو) هو وقوع أو مجيء شيء بعد شيء آخر، بحيث يكون مقابله، وعليه، فإنّ حقيقة تلاوة القرآن هي أن يقوم الشخص التالي بوضع آيات القرآن وكلماته أمامه في مقام الإظهار والإعلان أو تكريم القرآن الكريم وتشريفه (مصطفوي، ١٤١٦ق،ج١،ص ٣٩٥).

وبالاستناد إلى هذا المفهوم اللغوي فإنّ مادّة (تلو) تعني التّبعية والمتابعة أو التوالي والتتالي، وتلاوة القرآن معناها بيان الكلمات والحروف بعضها في بعض؛ وبالتالي فإنّ تلاوة القرآن تعني قراءته وسرده؛ إلّا أنّ التلاوة يتضمّن معنى تبيين القرآن ومتابعته أيضاً، وهذا المعنى منسجم مع تفسير هذا الكتاب السماويّ ومرتبط به، ويمكن القول في الأقلّ إنّ هذا المعنى يُعدّ من مقدّمات تفسير القرآن وتبيينه وتمهيداته.

وغالباً ما تشير آيات القرآن الكريم إلى هذا الأمر، فالله سبحانه يصف ذاته المقدّسة في المرحلة الأولى بأنّه التالي والمُبيّن للكتاب لرسوله الأعظم (ﷺ) بقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾(سورة آل عمران، الآية ٥٨) وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٥٢) ثمّ في المرحلة الثانية يُوكل مسؤولية تلاوة القرآن الحكيم ومهمّة تبيين معارفه إلى نبيّه الكريم (ﷺ) كما في قوله: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ (سورة البينة، الآية ٢) وحول الهدف من بعثة الأنبياء (عليهم السلام) يقول تعالى:﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(سورة البقرة، الآية ١٢٩).

وبالاستناد إلى مثل هذه الآيات، أوّلاً فإنّ الهدف من بعثة الأنبياء (عليهم السلام) هو تلاوة الآيات للناس من أجل هدايتهم وصحوة أفكارهم في ضوء الآيات الربّانية والجذّابة في الكتب السماوية، فالتلاوة المتتالية وفق نظام ومسار صحيحيْن هي مقدّمة لتعليم الناس وتربيتهم وصحوتهم، ولكي تُختَتَم التلاوة بالتعليم لا بدّ من أن تكون متتابعة ومستمرّة،

ولهذا ذكر القرآن الكريم فعل التلاوة بصيغة المضارع الذي يفيد الاستمرارية (جوادي آملي، ١٣٧٩ش،ج ٧ ،ص ٩٢).

ب- التّبيين

تُعتبر المادة (بين) من الأضداد، ومعناه الفِراق والهجر والانفصال عن شيء أو انكشافه (الجوهري، ١٣٧٦ق،ج ٥ ،ص ٢٠٨٢؛ ابن فارس، ١٤٠٤ق،ج ١ ،ص ٣٢٧)، وإلى جانب معنى البُعد فإنّ هذه المادة تعني الانكشاف والتوضيح أيضاً، يُقال: «بانَ الشيءُ وأبانَ بمعنى اتّضحَ وانكشف» (ابن فارس، ١٤٠٤،ج ١،ص ٣٢٨؛ الفيومي، ١٤١٤ق،ص ٧٠)، كما تعني كلمة (بَين) التوضيح والكشف، و (مُبيّن) اسم فاعل من باب (إفعال) بمعنى الموضّح والكاشف (الراغب الأصفهاني، ١٤١٢ق،ص ١٥٧).

ويعتقد بعضهم أنّ حقيقة البيان هو الانكشاف والوضوح بعد الإبهام والغموض، وذلك يكون نتيجة التفريق والفصل والإبعاد، وعليه، فإنّ (البيان) يعني كلّ حديث أو كلام تمّ الفصل فيه بين المبادئ التصورية والتّصديقية والهدف والنتيجة، وبالتالي، الحق عن الباطل والمقصود عن غير المقصود. وهكذا، فإنّ كلمة (تبيين) تعني الوضوح بعد الإجمال والإبهام من خلال الفصل (وليس الشّرح والتوضيح) (مصطفوي، ١٤١٦ق،ج ١ ،ص ٣٤٧ - ٣٤٨).

ومهما يكن من أمر فإنّ (تبيين) مصدر من باب (تفعيل) من المادة (بين)، ويمكن تفسيرها بمعنى الانكشاف والوضوح بعد الإبهام والإجمال وذلك من خلال التفريق والفصل.

وقد وردت في القرآن الكريم مشتقّات المادة (بين) مثل كلمة (تُبيّن) في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (سورة النحل، الآية ٤٤) وكلمة (تبيان) في قوله سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة النحل، الآية ٨٩) وكلمة (مُبين) في قوله (عَزّ وَجَلّ): ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (سورة القصص، الآية ٢) وجميعها تشير إلى المبالغة في الانكشاف وشدّة البيان.

وبالاستناد إلى الآية الشريفة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فإنّ بيان وتبيين المحملات والمبهمات في الأوامر الإلهية للمخاطبين من وظائف الرسول

الأعظم (ﷺ) ومسؤولياته، وعليه، فإنّ معنى التفسير والتبيين قريب ومتشابه، وكلاهما يشير إلى شدّة الانكشاف والظهور بالنظر إلى حالتهما الصّرفية، وإلى جانب هذه الكلمات فإنّ هنالك كلمات أخرى متناظرة كالتأويل والتعليم والتفصيل، وكلّها تعني بيان المعاني والمقاصد في الآيات، ويلزم توضيح ذلك مقالة مستقلّة ومفصّلة.

وبناءً على ما قيل فإنّ مادّة (بين) تتضمّن معنى الوضوح والكشف، وكذلك كلمة (تبيين)، والله سبحانه يذكر بأنّ كلامه النوراني في القرآن الكريم يبيّن الهداية للناس بقوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٣٨).

وبالاستناد إلى هذه الآية الشريفة فإنّ القرآن الكريم كتاب يمكن لجميع الناس فهمه وإدراكه في كلّ عصر ومصر؛ لأنّ الله الحكيم قد بيّنَ فيه للجميع كلّ المسائل والقضايا وشرحها وحلّلها ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (سورة القيامة، الآية ١٩). ويعتقد المُفسّرون أنّ هذه الآية تشير إلى أنّ الله تعالى تعهّد ببيان القرآن الكريم وتوضيحه للرسول الأعظم (ﷺ) (الطباطبائي، ١٤١٧ق،ج ٢٠ ،ص ١١٠) كما يرى البعض الآخر أنّ بيان القرآن وشرحه للناس موكول إلى الله سبحانه بواسطة حديث النبيّ الكريم (ﷺ) وحفظه من النسيان والاختلال في ذاكرته (الطبرسي، ١٤٠٦ق،ج ١٠،ص ٦٠١). وثمّة آيات أخرى أيضاً تشتمل على ضمير المتكلّم مع الغير وتتحدث عن مقام ومسؤولية الله سبحانه ورُسله: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١١٨) ؛ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأنعام، الآية ١٠٥).

ثمّ في المرحلة التالية، فإنّ هنالك آيات تشير إلى أنّ الرسول الأعظم (ﷺ) هو المتكفّل بتبيين وشرح المعارف القرآنية للناس، وقد وردت تلك الآيات في سورة (النّحل) مثل قوله تعالى: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل، الآية ٤٤). ووفق هذه الآية الشريفة ولا سيّما عبارتَيْ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ و﴿نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فإنّ القرآن الكريم أُنزل على النبيّ (ﷺ) وعلى الناس أيضاً، وتستأنف السورة قولها: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فالناس العاديين ليسوا في مقام يمكّنهم من تلقّي الوحي الإلهيّ مباشرة، ولهذا فإنّ أنوار الوحي أوّلاً ما تتنزّل على

قلب النبيّ (ﷺ) الطاهر وصدره المشروح، ثمّ تخرج من فمه الشريف إلى أسماع الناس وقلوبهم، فيكون الناس هم المُخاطبين بقوله تعالى (مُنزَلٌ إليه) و (مُنَزَّلٌ إليه)، وقد أنزل الله سبحانه القرآن الكريم على رسوله (ﷺ) لكي يُبيّن للناس ما أُنزِلَ إليهم ويفسّره ويوضّحه من أجل أن يتفكّروا ويتدبّروا فيه، فالرسول الأعظم (ﷺ) هو المُبيّن والمُفسّر الأوّل للقرآن الكريم، إذاً، فتبيينه وتفسيره حجّة على الناس؛ إذ من غير المعقول أن يُعرّف الله تعالى شخصاً ما كمفسّر، ولا يكون قوله حجّة (جوادي آملي، ١٣٧٩ش، ج٤٦ ،ص ٢٢٠).

ويبدو أنّ الآية الشريفة: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ هي أساس البيان القرآني في كشف جوهر التفسير والوصول إلى تعريف جامع له؛ لأنّ التبيين يشمل حقيقة التبيين والمُبيّنين الحقيقيين للقرآن الكريم وكذلك أساليب التبيين.

وعلى أيّ حال، فإنّ المقصود بالتبيين هو جميع القيود والقرائن التي تدخل في عملية فهم القرآن الكريم والتي تشتمل على معرفة القراءة الصحيحة للآيات بنصّ الرسول الأعظم (ﷺ) وبيان المُفردات والأسلوب الأدبي (الكلمات والجُمل) فالتركيز على القرائن المتصلة وكشف مقصود الله سبحانه أمر مُنفصل بالنّظر إلى القرائن والأدلّة المنفصلة (بابايي، ١٣٩٤ش،ص١٣).

وفيما يلي نسلّط الضوء على هذا المعنى الدقيق للتبيين من أجل توضيح معنى التفسير بشكل أكبر.

٣) مراحل عملية تفسير القرآن

في السطور الماضية تبيّن لنا معنى التفسير والتبيين القرآنيْن بالاستناد إلى معنى تلكما الكلمتيْن، أمّا الآن فينبغي لنا توضيح المسار التكوينيّ لعملية التفسير والتبيين من البدء حتى الختام.

فأمّا مراحل القيام بتفسير القرآن وتبيينه وكشف المراد الإلهيّ فهي:

أ- اختيار القراءة المعيارية

لا شكّ في أنّه لا بدّ من تفسير آيات القرآن الكريم وفق القراءة الحقيقية للآيات (ونعني بذلك القراءة التي كان رسول الله (ﷺ) يتّبعها في تلاوة الآيات)، وعليه، وعند تفسير أيّ آية، يجب البحث فيما إذا كانت هناك قراءات أخرى لها في المصاحف الموجودة أو وفق ما جاء في الروايات. وللإجابة عن هذا السؤال فإنّ هناك وجوهاً عديدة، منها:

١. إذا تبيّن من خلال البحث أنّ الآية المذكورة بقيت على حالها منذ زمان نزولها إلى يومنا هذا، ولم تُذكَر لها أيّ قراءة أخرى سوى هذه القراءة، يمكننا حينئذ تفسيرها بالاستناد إلى القراءة المذكورة ونسبتها إلى الله تعالى؛ إذ لا شكّ في أنّ تلك القراءة هي قراءة الرسول الأعظم (ﷺ).

٢. إذا تبيّن أنّ هناك قراءات أخرى لآية ما لكنّها كانت قراءات شاذّة، يمكن كذلك تفسيرها وفق تلك القراءة ونسبتها إلى الله تعالى؛ لأنّ القراءات الشاذّة ليست قراءة النبيّ الكريم (ﷺ).

٣. إذا تبيّن أنّ آية ما تمّ توضيحها وفق القراءات المشهورة الأخرى بالإضافة إلى القراءة الموجودة في المصاحف الحالية أو ذكرت الروايات المُعتبرة قراءة أخرى لها، فإنّه لا بدّ من البحث والتّقصي حول القراءة التي كانت قراءة رسول الله (ﷺ) وفي هذه الحالة هنالك أمران:

الأوّل: إذا ثبت بالأدلّة والشواهد القاطعة والمطمئنة كالروايات المتواترة أو المحفوفة بالقرائن القاطعة أو بمطابقة إحدى تلك القراءات مع الأدب الفصيح والقواعد الأدبية المُسلَّم بها عند خبراء الفصاحة العربية أنّ إحدى القراءات المشهورة أو المروية هي قراءة رسول الله (ﷺ)، فلا يمكن تفسير تلك الآية إلّا وفق تلك القراءة ونسبتها إلى الله تعالى، ثمّ بيان المضمون الاستعمالي للآية وفق القراءات الأخرى لكن دون نسبتها إلى الله سبحانه.

الثاني: إذا تعذّر معرفة قراءة الرسول الأعظم (ﷺ) بالأدلّة والشواهد القاطعة أو المطمئنة يمكننا تفسير ظاهر الآية وفق إحدى القراءات المشهورة أو المروية لكن لا ينبغي

نسبة أيّ من تلك المعاني إلى الله سبحانه ويجب الاكتفاء بالمعنى المشترك لجميع القراءات (أي، المعنى الذي يُفهَم من جميع القراءات) لكي تتمّ نسبتها إلى الله تعالى.

ب- معرفة معاني المُفردات والهيكل الأدبي للآيات

رغّب القرآن الكريم من جهة مخاطبيه بالتفكّر والتدبّر ثمّ التمسّك بدعوته وذمّ أولئك الذين لا يتدبّرون في آياته، ومن جهة أخرى لم يُقدِّم أيّ أسلوب بعينه من قِبَل الشّارع المقدّس لفهم القرآن الكريم ممّا يشير إلى أنّ الشّارع قد أمضى أسلوب ومنهج العقلاء في المحاورات وفهم النّصوص لفهم القرآن الكريم.

وعلى هذا الأساس ولاستيعاب مفاهيم المُفردات والهيكل الأدبيّ للآيات بدقّة وتجنّب الوقوع في الخطإ أو التقليل منه في الأقلّ فإنّه ينبغي مُراعاة بعض القواعد المستنبطة من أسلوب ومنهج العقلاء في محاوراتهم وحديثهم مع بعضهم. وتجدر الإشارة إلى أنّه إذا كانت رواية معتبرة عن النبي (ﷺ) أو أهل البيت (عليهم السلام)ذكر فيها معني غير عرفي لبعض مفردات القرآن الكريم أو أخبر فيها عن استعمال بعض المفردات في آية من آي القرآن الكريم في معنى غير عرفي أو أشارت إلى خصوصيات معنى مُعيّن من بعض الكلمات فإنّه لا بدّ من تفسير الآية وفق ذلك المعنى الخاصّ المذكور في الرواية ولا يمكن التمسّك بظهور الآية على أساس معنى الكلمة العرفيّ من دون الالتفات إلى معناها الروائيّ. على سبيل المثال، فإنّ الفعل ﴿ضَحِكَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ ﴾ (سورة هود، الآية ٧١) معناه في اللغة والعرف هو الضّحك المعروف، لكن ورد في رواية منقولة بسند مُعتبَر عن الإمام الصّادق (عليه السلام) أنّ معنى ضحكت هو (حاضَت) (القمي،١٤٢٦ق،ج ١،ص ٣٣٤) وهذا المعنى يتناسب مع سياق ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾.

ج- الالتفات إلى القرائن المتّصلة والمنفصلة

يقوم كلّ متكلّم بالاستعانة بالقرائن في كلامه وكلماته لإفهام المطالب إلى مُخاطبيه إلى جانب الألفاظ والعبارات، وهذا الأمر لا يتحقّق إلّا بطريقيْن: قد يكون الكلام دالّاً على مقصود المتكلّم بفضل القرائن المصاحبة له، حيث تسمّى تلك القرائن بالقرائن المتّصلة؛ وقد يبيّن المُتكلّم كلامه ويكون مدلوله كليّاً أو خفيّاً أو مردّداً بين احتماليْن أو

أكثر أو حتى ظاهر في معنى لا يقصده المتكلّم. لذلك، فقد يستعين المتكلّم لتحديد أو شرح المقصود من كلامه بقرائن منفصلة عن الكلام وعندئذ تُسمّى تلك القرائن بالقرائن المنفصلة، وعليه، اهتمّ المُفسّرون في الماضي والحاضر بالقرائن – قلّت أو كثرت - في تفسير الآيات، وبيّنوا مقصود الآيات بالتركيز على القرائن.

على سبيل المثال، فإنّ عبارة ﴿جَاءَ رَبُّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (سورة الفجر، الآية ٢٢) تتضمّن ظهوراً في مجيء الله سبحانه، لكن، وبالاستناد إلى القرينة العقلية أو النّقلية (الروايات) فإنّ المقصود في الآية المذكورة هو مجيء أمر الله وليس الله تعالى.

٤) المُفسّرون الحقيقيون للقرآن

بالاستناد إلى آيات القرآن الكريم والروايات المُعتبرة فإنّ آل البيت (عليهم السلام) هم المُبيّنون والمُفسّرون والعالمون بجميع جوانب الآيات. ووفق بعض الروايات فإنّ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) قد علّم أمير المؤمنين (عليه السلام) كلّ علومه ومعارفه ونقل أمير المؤمنين (عليه السلام) بدوره تلك العلوم إلى الأئمّة (عليهم السلام) من بعده: «... فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ص آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأَنِيهَا وَ أَمْلَاهَا عَلَيَّ فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي وَ عَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا وَ تَفْسِيرَهَا وَ نَاسِخَهَا وَ مَنْسُوخَهَا وَ مُحْكَمَهَا وَ مُتَشَابِهَهَا وَ خَاصَّهَا وَ عَامَّهَا وَ دَعَا اللَّهَ أَنْ يُعْطِيَنِي فَهْمَهَا وَ حِفْظَهَا فَمَا نَسِيتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَ لَا عِلْماً أَمْلَاهُ عَلَيَّ وَ كَتَبْتُهُ مُنْذُ دَعَا اللَّهَ لِي بِمَا دَعَا وَ مَا تَرَكَ شَيْئاً عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ حَلَالٍ وَ لَا حَرَامٍ وَ لَا أَمْرٍ وَ لَا نَهْيٍ كَانَ أَوْ يَكُونُ وَ لَا كِتَابٍ مُنْزَلٍ عَلَى أَحَدٍ قَبْلَهُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا عَلَّمَنِيهِ وَ حَفِظْتُهُ فَلَمْ أَنْسَ حَرْفاً وَاحِداً ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي وَ دَعَا اللَّهَ لِي أَنْ يَمْلَأَ قَلْبِي عِلْماً وَ فَهْماً وَ حُكْماً وَ نُوراً فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمِّي مُنْذُ دَعَوْتَ اللَّهَ لِي بِمَا دَعَوْتَ لَمْ أَنْسَ شَيْئاً وَ لَمْ يَفُتْنِي شَيْءٌ لَمْ أَكْتُبْهُ أَ فَتَتَخَوَّفُ عَلَيَّ النِّسْيَانَ فِيمَا بَعْدُ فَقَالَ لَا لَسْتُ أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ النِّسْيَانَ وَ الْجَهْلَ» (الكليني، ١٤١٣ق،ج ١،ص ٦٤).

وفي رواية مُعتبرة أخرى عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ (عليه السلام) عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ فَقَالَ: "نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ والْحَسَنِ والْحُسَيْنِ (عليهم السلام) ". فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: فَمَا لَهُ لَمْ يُسَمِّ عَلِيّاً وأَهْلَ بَيْتِهِ

(عليه السلام) في كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: فقال: "قولوا لهم: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزلت عليه الصلاة، ولم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتّى كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو الذي فسّر ذلك لهم؛ ونزلت عليه الزكاة، ولم يسمّ لهم من كلّ أربعين درهماً درهم حتّى كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو الذي فسّر ذلك لهم؛ ونزل الحجّ، فلم يقل لهم: طوفوا أسبوعاً حتّى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي فسّر ذلك لهم؛ ونزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ونزلت في عليّ والحسن والحسين (عليهم السلام)، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في عليّ (عليه السلام): من كنت مولاه فعليّ مولاه؛ وقال (عليه السلام): أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي..."» (الكليني، ١٤١٣ق، ج ١، ص ٢٨٧).

وبالنّظر إلى هذه الرواية فإنّ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) كان عالماً وعارفاً بكلّ معاني القرآن الكريم، وقد جعله الله سبحانه المُبيّن لكتابه العزيز، فلم يتجاوز (صلى الله عليه وآله) حدود مسؤولياته ووظائفه.

نعم، إنّ القرآن الكريم كتاب سماويّ خالد، ومعارفه وعلومه ليست مقصورة على زمان النبيّ (صلى الله عليه وآله)، ومن ناحية أخرى فإنّ بعض معارف القرآن خفيّة على الجميع، ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون هناك شخص عارف بتلك العلوم بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ويكون عالماً بتنزيله وتعويضه وظاهره وباطنه ومصوناً من الخطإ والنسيان وقادراً على تقديم التفسير الحقيقيّ للآيات ليكون مرجعاً للأمّة عند مواجهة حالات الاختلاف والإبهام، ويستطيع الناس الوصول إلى المعارف القرآنية من خلال ذلك المرجع، ولولا ذلك لظلّ القسم الأكبر من المعارف القرآنية مبهماً وغامضاً ولاقتصرت الاستفادة منه على زمان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) وذلك لا يتوافق مع خلود القرآن وأبديّته، ومن ناحية أخرى كان القرآن سيصبح سبباً للنزاع والاختلاف والفرقة لعدم وجود المُفسّر الحكيم العارف بجميع العلوم الحقيقية مع أنّ القرآن الكريم جاء ليزيل الاختلاف والفرقة، ولَما حصل المتوقّع من نزوله وهو هداية البشرية ورفع الخلافات، وذلك لا يتوافق أبداً مع الحكمة الإلهية. وعلى هذا الأساس أوصى الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) عند احتضاره بعدم الاكتفاء بالتّمسك بالقرآن الكريم، بل طالما أوصى أصحابه بالتمسّك بشيئيْن اثنيْن لضمان عدم ضلالهم: كتاب الله وآل بيته (عليهم السلام) بقوله (صلى الله عليه وآله): «إنّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ

تَمسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَ عِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي- وَ إِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ» (القمي، ١٤٢٦ق،ج ٢،ص ٤٧٧).

وصرّح الإمام الباقر (عليه السلام)، وهو يشرح حديث الثّقلَيْن بأنّ آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، هم المُفسّرون الحقيقيون للقرآن الكريم: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ (عليه السلام) عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله) إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ فَتَمَسَّكُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: "لَا يَزَالُ كِتَابُ اللَّهِ وَالدَّلِيلُ مِنَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ"» (الصفار، ١٤٠٤ق،ج ١،ص ٤١٤)؛ وتؤيّد هذه الرواية مضمون حديث الثّقلَيْن وكون آل البيت (عليهم السلام) هم مُفسّري القرآن الكريم الحقيقيين.

٥) معنى التفسير وفق سيرة آل البيت (عليهم السلام)

أشرنا آنفاً إلى أنّ التركيز على القرائن يُعدّ من المراحل المهمّة في التفسير، وبناءً على هذا فإنّ تسليط الضوء على كلام آل البيت (عليهم السلام) كقرينة منفصلة أمر ضروريّ ومهمّ للغاية للوصول إلى جوهر التفسير وتبيينه. وقد استعان آل البيت (عليهم السلام) بأساليب متعدّدة في تفسير القرآن الكريم، وفيما يأتي ملخّص لتلك الأساليب والمناهج:

أ- بيان معنى كلمات الآية

اهتمّ آل البيت (عليهم السلام) كما في الكثير من الروايات بمعنى الكلمة في الآيات القرآنية، ومن ذلك كلمة (رَقيب) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (سورة النساء، الآية ١) التي فُسِّرَت بالـ (حفيظ) (المجلسي،١٤٠٣ق،ج ٢٣،ص ٢٦٩و٢٠)؛ وكلمة (مُتَجانِف) في الآية الشريفة: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ (سورة المائدة، الآية ٣) بمعنى (المتعمِّد) (القمي، ١٤٢٦ق: ج١، ص١٧٠).

ب- التركيز على تأثير الأسباب وشؤون نزول الآيات

نزلت بعض آيات القرآن الكريم، وهي تتحدّث بوقائع وأحداث حصلت في الأزمنة التي سبقت ظهور الإسلام أو في صدر الإسلام، وتمثّل شأن نزول تلك الآية. فالالتفات إلى تلك الوقائع والحوادث كجزء من قرائن الكلام الإلهيّ، له تأثيره الكبير في حلّ المشاكل التفسيرية والفهم الصحيح لمضمون الآية والمقصود بها. على سبيل المثال، فإنّ الآية الشريفة: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، الآيتان ٦٥-٦٦) تشير إلى قصة جماعة من بَني إسرائيل ممّن كانوا يسكنون بالقرب من البحر، فحُرّم عليهم صيد السّمك أيّام السبت، فاحتالوا على هذا الأمر، فكانوا يسوقون السّمك إلى شطآنهم وأحواضهم يوم السبت، ثمّ يخرجونه ويصيدونه في الأيام الأخرى، فلعنهم الله بسبب فعلتهم هذه ومسخهم قردة. من الواضح أنّ عدم معرفة الحدث التأريخيّ المذكور كان سيجعل مفهومها ومقصودها صعباً وعسيراً.

ج- تفسير القرآن بالاستناد إلى معارفه

يُعتبر تفسير القرآن بالقرآن من أساليب آل البيت (عليهم السلام) في توضيح الآيات القرآنية، على سبيل المثال، قال الإمام الحسن المُجتبى (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (سورة البروج، الآية ٣): «نعم، أمّا الشاهد فمحمد (صلى الله عليه وآله) وأمّا المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة الأحزاب، الآية ٤٥) وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (سورة هود، الآية ١٠٣)» (المجلسي، ١٤٠٣ق،ج ٤٣،ص ٣٤٥).

وبناء على هذا فإنّه لا بدّ من البحث الكامل في سائر الآيات القرآنية الأخرى ذات الصّلة عند تفسير آية ما واتّباع الدقّة والحذر لفهم المقصود الإلهيّ في تلك الآية الشريفة، وهذا النوع من التفسير يُسمّى تفسير القرآن بالقرآن، وهو أسلوب ممتاز وصحيح لبلوغ معنى الآيات، بل لا يمكن فهم المقصود الإلهيّ الحقيقيّ في الكثير من الآيات إلّا من خلال الاستعانة بآيات أخرى. على سبيل المثال، وفق الآية الشريفة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٢٨) ينبغي للنساء المطلّقات أن ينتظرن ثلاث حيضات، وهي عدّة طلاقهنّ، فإذا لم نأخذ بعين الاعتبار الآيات ذات الصلة بهذا الموضوع فإنّنا لن نصل إلى مقصود الله سبحانه الحقيقيّ في الآية المذكورة، فظاهر الآية يشير إلى ضرورة تربّص المرأة ثلاث حيضات بعد تطليقها سواء أكانت حاملة أم لا، وسواء أكان زوجها قد باشرها أم لم يفعل؛ لكن بالنّظر إلى بعض الآيات الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن

﴿ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (سورة الأحزاب، الآية ٤٩) وقوله تعالى: ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (سورة الطلاق، الآية ٤) يتبيّن لنا أنّ مقصود الله سبحانه من (المطلّقات) في الآية الأولى طائفة مُعيّنة من النساء المطلّقات، أي النساء اللاتي باشرهنّ أزواجهنّ لكن لم يحملن، فعدّة هؤلاء ثلاث حيضات، وأمّا النساء اللاتي يتمّ تطليقهنّ بعد عقد الزواج مباشرة قبل أن يمسّهنّ أزواجهنّ فلا عدّة عليهنّ، والنساء الحاملات تنتهي عدّة طلاقهنّ بوضع حملهنّ.

د- تخصيص وتقييد العمومات والإطلاقات القرآنية

كما مرّ بنا فإنّ روايات آل البيت (عليهم السلام) هي من القرائن المنفصلة لتبيين المعارف القرآنية وتفسيرها، وهنالك العديد من روايات آل البيت (عليهم السلام) التي تحدّثت بموضوع تقييد الإطلاق وتخصيص العموم، على سبيل المثال، سأل شخص الإمام علي (عليه السلام) عن قوله تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(سورة غافر، الآية ٦): لماذا لا يُستَجاب لنا ونحن ندعوا؟ قال (عليه السلام): «لأنّ قلوبكم خانت ثمان أشياء: لم تؤدّوا حقوق الله... فإذا لم تَفوا بوعودكم فإنّ الله سبحانه لن يَفي لكم بوعده» (المجلسي، ١٤٠٣ق،ج ٩٠،ص ٣٧٦).

ومثال آخر هو تبيين مفهوم العدالة في الزوجية حيث توضّح الآيتان: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (سورة النساء، الآية ٣) و﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (سورة النساء، الآية ١٢٩) للمُفسّر المعنى الحقيقيّ للعدالة. وعن الإمام الصّادق (عليه السلام) أنّه قال: «أَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ يَعْنِي فِي النَّفَقَةِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ يَعْنِي فِي الْمَوَدَّةِ» (الكليني، ١٤١٣ق،ج ٥،ص ٣٦٣).

هـ- تبيين المعاني الباطنة للآيات أو مصداقها

يُخفي القرآن الكريم وراء ظاهره باطناً ومعاني عميقة تتعلّق بالظاهر ولا بدّ من الوصول إلى معانيه وباطنه، ويمكننا بلوغ معاني القرآن الباطنة وفهم كيفية ذلك بفضل روايات آل البيت (عليهم السلام). على سبيل المثال، قال الإمام الصّادق (عليه السلام) بعد تفسيره ظاهر الآية الشريفة: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٦٠): «فهذا تفسير الظاهر وتفسيره في الباطن: "خُذْ أربَعةً ممنّ يحتمل الكلام فاستودعهم علمَك ثمّ ابعثْهُم في أطراف الأرضين حججاً لك علي الناس..."» (المجلسي، ١٤٠٣ق،ج ١٢،ص ٦٣). في هذا الحديث نلاحظ تقييد كلمة التفسير بالظاهر حيناً وبالباطن حيناً آخر، ونفهم من هذا التفسير أنّ كلمة (التّفسير) تشمل بيان مقاصد ظاهر الآيات وباطنها دون قيد أو قرينة، وإذا كان التفسير يعني فقط بيان مراد ظاهر الآيات والتأويل بمعنى بطون الآيات لكان الأنسب أن يُقال: «فهذا تفسيره، و تأويله كذا» بدلاً من: «فهذا تفسير الظاهر، و تفسيره في الباطن..».

وجدير بالذّكر أنّه وإضافة إلى المعاني الظاهرة والباطنة فإنّ لمصاديق الآيات دور كبير في توضيح المقصود الإلهيّ، على سبيل المثال، ما لم يتبيّن المصداق في الآية الشريفة: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾(سورة المائدة، الآية ٥٥) سيبقى المقصود الإلهيّ خفيّاً ومستوراً، فالله سبحانه في هذه الآية يريد بيان ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) فضلاً عن ولاية رسوله (صلى الله عليه وآله) فمن دون اتّضاح مصداق ﴿الَّذينَ آمَنُوا﴾ لن يتّضح مقصود الله تعالى في الآية. وفي مثل هذه الموارد فإنّ بيان المصداق يُعدّ جزءاً من التفسير وليس في جميع الموارد.

وعند البحث في باطن الآيات فإنّ ثمّة موارد تحتاج إلى توسيع معناها لانطباق الآية مع المصاديق، وفي مثل هذه الموارد إذا لم يتمّ الالتفات إلى المصداق فقد لا نحصل على معنى الآية أو مقصودها بشكل كامل كما في الآية الشريفة: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ (سورة عبس، الآية ٢٤) فمعنى الطعام واضح ومفهوم في اللغة العربية ولا حاجة إلى

تفسيره، لكن يُحتَمل أن الله سبحانه قصد شيئاً آخر منه في هذه الآية، شيئاً أوسع من طعام الجسم والروح؛ فمعنى الطعام في اللغة العربية ظاهر في الطعام الجسمي لكنّ تفسير ذلك بـ«إلى علمه» (البحراني، ١٤٢٨ق، ج٤،ص ٤٢٩) يوضّح أنّ الله تعالى يقصد بالطعام شيئاً أبعد من الطعام بمعناه العرفي، أي، يتبيّن لنا من بيان مصداق الطعام المعنى الحقيقيّ المقصود في الآية. ويبدو أنّ بيان المصداق في مثل هذه الموارد يؤثّر في فهم الآية الشريفة (آريان، ١٣٨٧ش،ج ٢،ص ١٩٣-٢٢٥).

وجدير بالذكر أنّ الروايات التي تتّصف بالجَري والتطبيق لا تمثّل تفسيراً وكشفاً مفهومياً، لكن على أيّ حال فإنّها من موارد التبيين والتفسير ومن رسالات النبيّ (ﷺ) وآل بيته (عليهم السلام) – وهم المُفسّرون الحقيقيون للقرآن الكريم – ولطالما أشاروا (عليهم السلام) إلى هذا الأمر. وقد يكون تعيين المصداق هذا بشكل يتضمّن الامتثال لأمر الله سبحانه مثل قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٣٨) حيث توجّب بيان المصداق وتوضيحه لإحراز الامتثال للأمر الإلهيّ، وذلك بعبارة ﴿الصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾، كما تطلّب الأمر البيان الحصريّ لآية الولاية (سورة المائدة، الآية ٥٥) وإنفاق الخاتم لتثبيت أمر إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام).

وعلى هذا الأساس ففي المصاديق الحصرية على الأقل، لقد ضيّقت الروايات مفهوم بعض الآيات ولا تعتبرها قابلة للتطبيق على الموارد الأخرى رغم أنّ ظاهرها يفيد الشمول والتوسعة في مضمونها، ولهذا، فإنّ إخراج جميع الروايات التطبيقية من مجال التفسير - كما فعل بعض كبار المُفسّرين من أمثال صاحب الميزان (الطباطبائي، ١٤١٧ق، ج١ ،ص ٤٥) - مُعرَّض للنّقد لأنّ معرفة المصاديق تؤدّي في الأقلّ إلى الحصول على نتيجتيْن مُفيدتيْن:

أ- سيكون المُفسّر قادراً على إنتاج المعرفة التفسيرية من خلال الخوض في فضاء مفهوم الآية أو الآيات بما يتناسب والنماذج المُعطاة.

ب- في الموارد التي تعمل الروايات على تقييد مفهوم الآية من خلال بيان المصاديق الحصرية وتُقلّص مجال شمولها لا بدّ من التعامل مع التفسير بهذا الشكل أيضاً، وهو

الأسلوب الذي استخدمه بعض المُفسّرين الكبار مثل العلّامة الطباطبائي (رَحمه الله) (تقوي دهاقاني، ١٣٨١ش،ص ٢٦٨-٢٦٩).

نعم، لا يكفي فهم ظاهر الآيات دوماً لكشف المقصود الإلهيّ، بل قد يحتاج الأمر أحياناً إلى بيان البطن والمصاديق لتوضيح المُراد الإلهيّ لأنّ ذلك مؤثّر وفاعل، لكن لا بدّ لنا أن نعرف أنّ الدخول إلى باطن القرآن يمرّ بظاهره، رغم أنّ مُعظم المُفسّرين يُعرّفون التفسير بأنّه كشف مُراد الله ومقصوده، إلا أنه فيما يتعلّق بالمصاديق الحصرية فإنّ ذكر المصداق الخفيّ يُبيّن مقصود الله تعالى ويزيل الإبهام والغموض الموجودَيْن في الآية.

استنتاج

إنّ من بين الجهود التي بذلها المُفسّرون على مرّ تأريخ التفسير الطويل هو إيجاد تعريف جامع ومانع لجوهر تفسير القرآن الكريم وحقيقته لأنّ ذلك يُعدّ من البحوث المهمّة والأساسية للغاية في تفسير القرآن.

فالتشتّت والاختلاف في تعريف التفسير ومن ذلك عدم ذكر تعريف للتفسير أو تعريفه بأنّه علم أو عمل المُفسّر الذي يؤدّي إلى فهم المعنى وكشف مقصود الله سبحانه، هو نموذج واضح لتلك الجهود.

وبناءً على هذا، ولمعرفة جوهر التفسير لا بدّ لنا من البحث في معنى مفردات التفسير والتلاوة والتبيين، ويبدو أنّ (التبيين) هو أهمّ محور في كشف جوهر التفسير. والمراد بالتبيين هو جميع القيود والقراءات التي تُعين على فهم آيات القرآن الكريم. فانتخاب القراءة المعيارية والتعرّف على معاني المفردات والبنية الأدبية للكلمات والجمل والاهتمام بالقرائن المتّصلة والمنفصلة هو أنجع الأساليب الطبيعية قاطبة. إنّ الرسول الأعظم (ﷺ) وآل بيته الكرام (عليهم السلام) هم المُبيّنون والمُفسّرون والعالمون الحقيقيون بكلّ جوانب الآيات، وأسلوبهم ومنهجهم – باعتبارهم المُفسّرين الواقعيين – يُمثّل قرينة منفصلة في فهم معاني وكلمات القرآن وتفسير القرآن بالقرآن وتخصيص وتقييد العمومات والإطلاقات وشأن نزول الآيات وبيان المعاني الباطنة أو المصداقية للآيات في هذا المجال.

وعلى هذا الأساس فإنّه لا بدّ من تقديم تعريف يبيّن كشف المعنى والمقصود الإلهيّ للوصول إلى جوهر التفسير وحقيقته، ومن هنا فإنّ التعريف الصحيح لتفسير للقرآن هو بيان الآيات وفق القراءة الصحيحة للآيات، والمفهوم العرفي والبنية الأدبية للكلمات والجمل، والقرائن المتّصلة بها وأنواع الدلالات وكشف المراد الإلهيّ من الآيات بالنظر إلى القرائن والأدلّة المنفصلة، وهذا أفضل تعريف للتفسير وأكمله، وعندئذ سيكون بيان المعاني الباطنة وتبيين مصاديق الآيات موجوداً ضمن إطار التفسير نفسه.

قائمة المصادروالمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

١. آريان، حميد، ١٣٨٧ش، الندوة العلمية حول مفهوم تفسير القرآن بالقرآن من منظور العلامة الطباطبائي، قرآن شناخت، ٢، ١٩٣-٢٢٥.
٢. الآلوسي، محمود، ١٤٠٨ق، روح المعاني، دارالفكر، بيروت.
٣. ابن الأثير، ١٣٦٧ش، النهايه في غريب الحديث و الأثر، إسماعيليان، قم.
٤. ابن دريد، محمد بن حسن، ١٩٨٧م، جمهره اللغة، دارالعلم للملايين، بيروت.
٥. ابن عاشور، محمد بن طاهر، ٢٠٠٠م، التحرير و التنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت.
٦. ابن فارس،أحمد ،١٤٠٤ق، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، قم.
٧. ـــــــ، ١٤٠٦ق، مجمل اللغه، تحقيق: سلطان زهير، موسسة الرسالة، بيروت.
٨. ابن منظور، محمد بن مكرم، ١٤٠٨ق، لسان العرب، دار إحياءالتراث، بيروت.
٩. بابايي علي أكبر وآخرون، ١٣٧٩ش، روش شناسي تفسير قرآن،الطبعة الأولى: الناشر: پژوهش‌گاه حوزه و دانش‌گاه و سمت، قم، طهران.
١٠. بابايي علي اكبر،١٣٧٢ش، تأويل قرآن، معرفت، العدد:٦، قم.
١١. ـــــــ، ١٣٧٧ش، باطن قرآن كريم، معرفت، العدد:٢٦، قم.
١٢. ـــــــ، ١٣٩٤ش، قواعد تفسير قرآن، قم، پژوهش‌گاه حوزه و دانش‌گاه.
١٣. البحراني، هاشم بن سليمان، ١٤٢٨ق، البرهان في تفسير القرآن، قم، مؤسسة دار المجتبى للمطبوعات.
١٤. تقوي دهاقاني، السيد حسين، ١٣٨١ش، روش شناسي أهل بيت در تفسير، تأويل و تطبيق قرآن، قم، موسسة فرهنگ منهاج.
١٥. التهانوي، محمد علي، ١٩٩٦م، كشّاف اصطلاحات الفنون و العلوم، تحقيق: علي دحروج، الطبعة الأولى، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون.

١٦. حقي بروسوي، إسماعيل، ١٤٠٥ق، روح البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧. الجزايري، السيد نور الدين، ١٣٦٧ق، فروق اللغات، مكتب نشر الثقافه الإسلامية.
١٨. الجوهري، إسماعيل بن حماد، ١٣٧٦ق، الصحاح تاج اللغه و صحاح العربيه، دار العلم للملايين، بيروت.
١٩. الجوادي الآملي، عبدالله، ١٣٧٩ش، تسنيم، الطبعة الثانية، مركز نشر إسراء، قم.
٢٠. ـــــــــــ ،١٣٨٦ش، منزلت عقل در هندسه معرفت ديني، الطبعة الثانية، مركز نشر إسراء، قم.
٢١. الخوري الشرتوني، سعيد، ١٤٠٣ق، أقرب الموارد في فصح العربية و الشوارد؛ قم، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.
٢٢. الرازي، أبو الفتوح، ١٣٦٦ش، روض الجنان وروح‌الجنان، بنياد پژوهش‌هاي إسلامي، مشهد.
٢٣. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، ١٤١٢م، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولى، دار القلم، دار السامية، دمشق، بيروت.
٢٤. رجبى، محمود ، ١٣٨٣ش، روش تفسير قرآن، پژوهشكده حوزه و دانش‌گـاه، قم.
٢٥. رشيد رضا، محمد، ب.ت، تفسير القرآن الشهير بالمنار، دار المعرفه، بيروت.
٢٦. الزبيدي، محمد مرتضي، ١٤١٤ق، تاج العروس مِن جواهر القاموس، المطبعه الخيريه، مصر.
٢٧. الزركشي، محمد عبدالله، ١٤١١ق، البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت.
٢٨. الزمخشري، محمود، ١٤٠٧ق، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٩. سيوطي جلال الدين، ١٣٨٠ش، الاتقان في علوم القرآن، به تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم چاپ اول، فخر الدين، قم.
٣٠. شاكر، محمد كاظم و بابايي، علي أكبر، ١٣٨١ش، باطن و تأويل قرآن، الطبعة الأولى، مركز مطالعات و پژوهش‌هاي فرهنگـي حوزه علميه، قم.
٣١. الصفار، محمدبن حسن، ١٤٠٤ق، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد، ج١، قم، مكتبة آية الله المرعشي النجفي.
٣٢. صفي پـور، عبد الرحيم، ب.ت، منتهي الأرب في لغة العرب، الناشر: مكتبة سنايي، طهران.
٣٣. الطباطبايي، السيد محمد حسين، ١٤١٧ق، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٣٤. الطبرسي، فضل بن حسن، ١٤٠٦ق، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت.
٣٥. الطبري، محمد بن جرير، ١٤١٢ق، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار المعرفة، بيروت.
٣٦. الطريحي، فخر الدين، ١٣٧٥ق، مجمع البحرين، مكتب نشر الثقافة الاسلاميه.
٣٧. الطوسي، أبو جعفر محمد، بي تا، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٨. طيب حسيني وآخرون، ١٣٩٦، تفسير شناسي، قم، پژوهش‌گاه علوم و فرهنگ اسلامي.
٣٩. العسكري، ابو هلال، ١٣٥٣ق، الفروق اللغوية، مكتبة بصيرتي، قم.
٤٠. الفراهيدي، خليل بن أحمد، ١٤١٤ق، ترتيب كتاب العين، أسوة، قم.
٤١. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب ١٤١٥ق، القاموس المحيط، دار المعرفه، بيروت.
٤٢. الفيومي، احمد بن محمد، ١٤١٤ق، المصباح المنير، الطبعة الأولى، مؤسسة دار الهجرة، قم.
٤٣. القرطبي، محمد بن أحمد، ١٤٠٨ق، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العلمية، بيروت.
٤٤. القمي، علي بن إبراهيم، ١٤٢٦ق، تفسير القمي، ج١، قم، دار الحجة عليه السلام.
٤٥. الكليني، محمدبن يعقوب، ١٤١٣ق، الكافي، بيروت، دارالأضواء.
٤٦. المجلسي، محمد باقر، ١٤٠٣ق، بحارالأنوار، بيروت، موسسة الوفاء.
٤٧. المصطفوي، حسن، ١٤١٦ق، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الطبعة الأولى، مؤسسة الطباعة التوزيع التابعة لوزارة الثقافة والإعلام الإسلامي، طهران.
٤٨. معرفت، محمد هادي، ١٣٦٧ش، التمهيد في علوم القرآن، الطبعة الثانية، نشر مركز إدارة الحوزات العلمية، قم.
٤٩. ـــــ، ١٤١٨ق، التفسير و المفسرون في ثوبه القشيب، الطبعة الأولى، جامعة رضوي للعلوم الإسلامية، مشهد.
٥٠. ـــــ، ١٣٨٣ش، التفسير الأثري الجامع، الطبعة الأولى، الناشر: مؤسسه التمهيد، قم.
٥١. ـــــ ، ١٤٢٧ق، التأويل في مختلف المذاهب و الآراء، الطبعة الأولى، المجع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلاميه، طهران.
٥٢. ـــــ، ١٣٧٩ش، تفسير و مفسران، ج١، قم، موسسة فرهنگي التمهيد.
٥٣. واعظي، أحمد، ١٣٩٢ش، نظريه تفسير متن، قم، پژوهش‌گاه حوزه و دانش‌گاه.